

نموذج الأنا والآخر :الحضور والغياب

د. أمحمد زغوان
أستاذ مساعد مكلف بالدروس
قسم اللغة العربية معهد الآداب واللغات.
المركز الجامعي. سعيدة.

استهلالاتنا بفرش بفرشة للموضوع تغدو مقارنة نتغنى من خلالها كشف المدلول المصطلحي للفظ " النموذج " في محاولة لاستبيان عواقبه المعرفية حتى يكون الحديث في ظلاله فصيحا صريحا لأن الكثير من مسائل المصطلح عادت في أديباتنا عائمة رجراجة تثير عقدا إشكالية تحول دون وضوح الآفاق المعتمدة في مساحات الفكر. الأمر الذي أسلمنا إلى تشوش مفاهيمي وغيش يلف نظرتنا لبعضنا البعض في قضايا هي أقرب للمسلمات فضلا عن نظرتنا للآخر الحاضر بلفظه والغائب بمعناه.

هذا ب كله أو ببعضه يعيق تواصلنا ويكتم على النفس الحوارية الداخلي والخارجي مادامنا نشيع ثقافة الفرز الأثني الذي يتعقل القضايا بمنطق: أبيض وأسود.

ولعل أبا فراس كان يدندن حول نموذج المقصدي للنظرة الاعتدالية التوسطية حين قال : نحن قوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر.

إننا كثيرا ما نغلط أو نتغالط حين لا نضع في حسابنا أن بعضنا — حتى داخل البيت الثقافي الواحد — قد يتحرك في فهمه للقضايا الخلافية من منطلق نماذج التي يستحضرها هو، ثم يصير بذاتية صرفة على أن يجعل من

نموذجه مقياسا للحقيقة ومرجعية للصواب، وربما تمثل قول الشاعر في الطعن على مخالفه:

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن تكونوا أنتم حتى يكون لكم عند.
إن المرء — بالواقع — يفكر ضمن سياق حدي العالم يغدو مع السلوك الجمعي والممارسة اليومية تقليدا موروثا، وفرعا عضويا شديد اللصوق بالشخصية "الأنا" حتى إنه ليغطي على الشخصية الجمعية لكثافة التركيز المتماهي معها لدرجة الحلول الذي يصعب معه الفصل الذي يستحيل ضربا من المحال.

وعطفنا على موضع ورقتنا المتواضعة نعلم إلى محوره ضمن النقط التالية:

• إشكالات النموذج وحدوده

يقدم النموذج في أدبياتنا التراثية بمعنى متعدد فهو القدوة والأسوة وأحيانا المنوال الذي يحتذى وال قالب الذي يصب فيه الجهد*.. ولتأثر مثل هذه الدوال للفظ أخرى أن يبحث عن شحنته المعرفية في أحواز الاستعمال تحديدا، فالنحوي واللغوي مثلا عندما يضعاننا بين أن نقول كذا ولا نقول كذا، وأن الأصل في الأسماء الإعراب، وفي الأفعال البناء، وأن الاسم هو كذا، والفعل هو ما حسن فيه كذا.. فنحن هنا أمام طرح معياري قد وقص من صميم استعمال اللغة باعتبارها آلية إجرائية، وهما في حرصهما على تلك السلامة المؤثرة عن العربي الأول يقولان لنا بمنتهى الدقة والوضوح إن هذا هو نموذج السلامة اللغوية، وإن انقطع عهدنا بتجربة الاستعمال الأولى ودخلنا في تجربة أخرى إلا أن تلك التجربة التحقت بمنطق غير منطقها الأول حين نتعاطى معها نحن اليوم كونها عادت منطقا لغويا يقوم على

التجريد والخبرة الذهنية التي تكتسب معارفها، وتمتلك نماذجها بالارتياض والدربة.

ومرافدة لهذا المعنى مما يتصل بعالم المحسوس، ويرتبط بأحوال الاجتماع البشري مقالة أهل الأديان: بعصمة الأنبياء وكمالات شخوصها، وهي مقالة ذات صلة بكمالية النموذج البشري المرشح لأن يتخذ نموذجا للاقتداء والمتابعة في طريقته، وإن الكتب السماوية وهي تثني على المؤمنين وصفاتهم، وتحيل على النمط السلوكي الذي يصدر عنهم، ثم هي تعرض بالمكذبة والجهلة وتوسعهم ذما وتشنعا بصفاتهم وأشكالهم وأحوالهم. كانت في قلب معالجة مشكلة النموذج الإنساني في صورتيه المتقابلتين وتحيل بالتضاد على نموذجين مختلفين كل الاختلاف، وكل منهما يستفيد من الآخر في الترجمة عن نفسه والأعراب عن نموذجيه على طريقة الشيء بالشيء يذكر، والضد يظهر حسنه أو قبحه الضد.

وكثيرا ما يتحدث الناس عن عينات نموذجية لهم في السياسة وفي السلوك وغير ذلك .. يستحضرونها في أذهانهم ويتمثلون بها، وللسامع أن يتساءل عن طبيعة تلك النماذج، وعن وعائها الفكري، وعن مرجعية المتحدث في تقلد نموذج وطرح آخر، وعن المقاييس التي تحكم مثل هذه النظرة المعيارية ؟ وما السر وراء التوافق الجمعي في اختيار نموذج دون آخر ؟ .

وجواب ذلك كله أن هذا مما تسهم في تركيبته عناصر متعددة ومختلفة تصهر في بوتقة فرن التعاملات الاجتماعية: عادات وتقاليد دين ميول مصالح مناطقية.. وقد لا نشاط من نختلف معهم على نماذجهم، ولكن لا يجب أن يغيب عن بالنا أن " كل مليحة بمذاق " - كما يقال -.

أما في الدائرة الإقليمية والعالمية فإن كل ثقافة لها مثلها ونماذجها وأعلامها، وتتقارب النماذج الإنسانية الخالدة وتعيش في قلوب الناس حين يتوارثون حبها جيل بعد جيل بمقدار ما تخدم هذه النماذج الإنسانية وتعطيها ما تحقق به إنسانيتها في رصيد القيم والأفكار، وكل نموذج عظيم كان وراءه عمل عظيم.

إن هناك منجزات إنسانية : ثقافية وفكرية. حيادية القيم يشترك فيها الناس ويتسلمون ويتراضون عليها أشاد بها الأنبياء والرسل ونوه بها المصلحون، وقامت عليها دساتير الأمم والدول، وكتب لها أن تعيش لأنها قيم أممية مشاعة يتعاضم البشر ويتنمذجوا بها في أعين الأفراد والمجتمعات بقدر ما نالوا من حظها، وما تمثلوه منها قناعة وسلوكا، ولقد سئل " برنارد شو " هذا السؤال : هل قرأت أدب النفس لأرسطو ؟ . فقال : لقد قرأت أدب النفس لمحمد لأن أدبه غير البشرية، وجعل من العدم رعاة الغنم رعاة للأمم.

فهذا الرجل وإن كان ينتمي لثقافة غير الثقافة، وينحدر من نماذج غير النماذج إلا أن النموذج الرسالي للرسول الأعظم الحافل بالقيم الأخلاقية جعل منه نموذجا ذا بعد أممي عالمي وإن بقاعدة محلية، فعاد ملكا للبشرية وعقلاء الإنسانية، وكذلك شأن الأنبياء والرسل وأصحاب الدعوات للنماذج النبيلة .

وفي حالات أخرى خلاف الصورة المثلى نجد من لا يستسيغ قراءة النموذج المختلف إلا بوجه انتقاصي سعيًا لمركزة الذات المحتقنة بعقدة الامتياز والتفوق، الأمر الذي يبعد أصحاب هذه القراءة عن النظرات المتصالحة لكونهم يؤطرون خلافهم مع الأغيار من موقعية النماذج المقبولة والمعدة سلفا وفق مقادير ووصفات جاهزة تحول دون تجاوز الروى،

وتحجيم الأنا لوضعه موضعه الطبيعي بعيدا عن التضخم المرضي، وهنا نجد أنفسنا أمام حالة من الاشتباك والاشتباه الذي يختلط فيه الحق بالباطل كوننا لسنا أمام نموذج واضح القسمات، وإنما أمام نماذج رسمت بعناية لأنها جزء من الخطة التي يسوق لها الخصم لأجل تكريس الهيمنة وممارسة فتازيا الغلبة والاستكبار، والإمعان في تضليل المستضعفين وتوهمهم طوال الوقت، وحينها يبقى النموذج مطاطا لافتقاده الدقة والمقياس المفاهيمي، وما نموذج الإنسان العربي في وسائل الإعلام الغربي منا ببعيد، وكذا الصورة التي يراد تنميته بها في أدبياتهم، وتسويقه للعالم بها.

• النمذجة والواقع:

الظاهر أن النمذجة على المستوى العملي أكثر التصاقا بالواقع في حس الناس — ولا نتحدث هنا عن المثاليين — لارتباطها بالممارسة منها بالنظرية وإحالات القواميس ومدلولاتها، ولما كان الإنسان أكثر انجذابا للمادة بجملة أشكالها وصورها من ميله للتجريدات والغيبيات نراه يعتمد منهجيا إلى تحرير المجردات المعنوية من خلال التماسها في الشاهد المادي فمثلا عندما يتحدث أحد الباحثين في الحقل العلمي عن نشأة الاضطرابات العصبية والنفسية عن المكبوت الغريزي ومراكماته لا يجد مصادق لنموذجه إلا بحال البخار المتسرب والمنبعث عبر شقوق الرجل في آلة البخار إرادة تشخيص المرض بشكل استقصائي يجعل حضوره الذهني نموذجيا مستوفيا لأجزاء الصورة المتحدث عنها بالمثال، وبسبيل هذا في الثقافة العربية القديمة نمذجة صفة الكرم بقولهم: " فلان كثير الرماد " في متتالية قوامها كثرة الرماد عن كثرة الخطب، وكثرة الخطب عن كثرة النار، وكثرة النار عن كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ دليل كثرة الضيوف ثم الخلوص إلى نتيجة هي الكرم.

وهي حالة مطردة مأخوذة عن تجربة يومية تبلورت في قالب فكري بعد أن انتقلت من صورتها الحسية البسيطة إلى صورتها الذهنية حالما تعيد إنتاجها كيمياء اللغة وتغدو حضنها الأبدي، لتعود هي بدورها معيارا صوابيا يقاس به ويتحاكم إليه.

وكثيرا ما نرى الناس حين يعالجون المعاني يجعلونها تأخذ شكل صور بيانية وتشبيهات وتمثيلات حرصا منهم على سلامة النموذج التواصلية، وخوفا من اضطراب مضامينه أن تقول أو يساء فهمها.. فإذا أغلق على الواحد منهم باب تعقل حقائق المجردات عمد بطبعه إلى تجسيد نماذج ذلك وتجسيدها.

وهذه وضعية تدل بصورتها تلك على ثبات الأصل الأول الذي نهض عليه صرح اللغة، وأنها ذات منشئ حسي وطبيعة تجسيمية.

• أصالة النموذج:

لعل نموذجي الخير والشر من الأمثلة الأكثر حضورا وإلفا في كل ثقافات الشعوب والأمم، وبرغم تطاول الزمن ظل المعنيان يحتفظان بنفس النسق الفكري لكل منهما، ولا يمكن التدليس بهما على الآخر إلا مكرًا ولزمن قصير وسرعان ما ينكشف فيهما الغث من الثمين ويتميز النموذجان إذ لكل منهما منطق مفقود في الآخر، فهما أشبه بالعمودين المتوازيين المختلفي الوجهة بمضادة سهمية إن شروق الآخر منها غرب نديده.

ومنذ أقدم العصور غدا نموذج الخير والشر عنوانين كبيرين يدرج تحتها سلسلة من المصنفات المتناقضة للحياة الإنسانية في هذا الوجود، واقتضت أعراف الجماعة البشرية أن تثبت لهما مثالين رمزيين تقيس بهما ما يشكل عليها:

الأولى رمزية الشيطان والتي قد تحضر في الذهن حال تملّي المواقف، واستدعاء الرسم بصورة مادية ذهنية تغدو مصدر كل قبح وشر، وكثيرا ما نحتفظ بها لأنفسنا دون أن نعلن عنها خشية أن نرمى بالتجني، وهي بالنهاية تعكس مواقف نترجم عنها حين نجد أنفسنا نفكر بسلبية مفرطة، ونترصد مناقدة الناس ومواقفهم منا أو من النماذج التي نفىء إلى ظلها باعتبارها مثالنا الأقدس في كل ما نأمله ونتوخى تحقيقه على مستوى النظرية أو على مستوى التطبيق .

والرمزية الثانية تختزل نموذج " الملاك " في صورة على النقيض من الأولى، وهي تعكس حالا من أحوال التفكير المركب الذي يدفعنا عندما نفكر بإيجابية قد تزيد عن الحد إلى التعبير الافتراضي عن النموذج المثالي، ومن سبيل هذا ما يشيع في الثقافة الكنسية مثلا من رسم لصور ملائكة ذات أجنحة تتقاطع بصور أولاد صغار على درجة كبيرة من الوضاعة والصباحة والجمال كلهم وداعة وبراءة، وما من أحد يجادل في أنها صور للملائكة، أو يتورط في نقض هكذا برهان، كل ما هنالك أن هذا من عمل الفكر وليس بين أيدينا من صور الترميز للبراءة والطهر أقوى رصيда من وجه صبي** بهي الطلعة، معتدل القسمات، وادع النظرات ثم تضاف إليه أجنحة تغدو عنوانا للتسامي والرفعة الملوكوتية.

إننا حال الجمع بين النموذجين المتقدمين وسعينا لتزليهما على الممارسة الإنسانية لا يجب أن نحصر أنفسنا بين طرفي تلك المعادلة بحديها الناتئين فننتصف لذواتنا إلى حد الرضا المنتشي، ونسخط على الآخر لدرجة أن نصنع له صورة غمطية نركنه فيها ونرميه بكل نقيصة على حدّ قول الشاعر الغاضب:

‘ قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر

علينا أن نفاعل القضايا برؤية عقلائية ترى: أن لا خير مطلق هناك ولا شر مطلق هنا والعكس، وذلك حتى نكون إيجابيين، ونفقد من الآخر وإن اختلف عنا وإلا سنبقى طوال الوقت نعيد إنتاج أنفسنا، ونكرر صياغة روتيننا القاتل فـ:

عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساويا.

• نسبية النموذج بين النظري والعملي

يمكن التوقف عند هذه النسبية من خلال الإشارة إلى فكرتين نعتبرهما أساسيتين

الفكرة الأولى: ومفادها نظري كون الإنسان دوما يفترض نموذجا كماليا يتصوره ويزن الأمور وفقه كالطبيب الذي يتحدث عن مسائل الصحة والسلامة في الأبدان مفترضا نموذجا معياريا ليس يوجد في غير الكتب يستوجب أن يكون قياسه البصري مثلا كذا، والطولي كذا، والوزني كذا، والخفقان القلبي كذا.. وهكذا يمضي في متتالية من الشروط لا يمكن أن تنطبق بالكلية على جسم بعينه إلا فيما ندر، ويقابله نموذجا معياريا للاعتلال يقف على النقيض من الأول.

ولعل إحساسنا بالنقص التكويني هو الدافع وراء حاجتنا لنشدان الكمال في كل شيء، وهذه النقضانية هي التي تجعلنا نمارس إحساسنا بوجودنا وتعطي لحركتنا في الحياة معناها، بحيث لو كنا نماذج كاملة ما فكرنا في شيء اسمه الكمال بالمرّة، ولعله شعور جبلنا عليه، فغدا من هذه الحيشة لا يختلف بتاتا عن الشعور الطبيعي بالحاجة لتلبية الرغائب وإكراهاتها

فالعطش يوجه حركتنا الباحثة عن الماء، كما الجوع يحوجنا بالضرورة لطلب الطعام.

الفكرة الثانية: وهي فكرة برمجية مؤداها: البحث عن السبيل الأمثل الذي يجعلنا نتبرمج مع المواصفات التي يتوافر عليها النموذج الذي نجد أنفسنا تنماهى معه ليتأدى إلى واقعنا الاتسائي والسلوكي، وإلا كنا نعيش فصاما مرضيا أحد أعراضه العجز عن تمثل نماذجنا في صورة النجاحات لمجرد أن أجدادنا نجحوا حيث أخفقنا نحن، وربما أنشدنا مع الشاعر: أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع.

إن رأينا في أنفسنا أو نماذجنا ليس بالضرورة هو رأي الآخرين فينا، وعليه فإن نظرتنا للنموذج تبقى رؤية ذاتية — في الغالب — للأشياء والأوضاع حوالينا في عالم لم نعد موضع القلب منه ولا الكبد. وحتى في الحالة الأخيرة لا يمكن لزاعم أن يزعم أن نظرتة تلك هي من عمل فكره، وصنيع إرادته الحرة لأننا بالواقع مشاريع مختزلة أسهم في تشكيل الجانب الأكبر منها مجتمعا التاريخي ولأننا أبناء تاريخيون بامتياز في حين يعتري حاضرننا غبش شائه يبدد أجزاء الصورة وملاحمها.

إننا أبناء بيئتنا، ووسطنا الثقافي، وإن وجدت نماذج شردت عن هذه القاعدة فهي لا تعدو أن تكون الاستثناء الذي يثبت تلك القاعدة، لأن المعنى القائل في أدبيات الاجتماع: "إننا عندما نتكلم فإن المجتمع هو الذي يتكلم من خلالنا" نتصوره أكثر انطباقا على القاعدة العامة للسلوك الاجتماعي في العادي من أحوالنا، ويتجلى هذا المعنى بشكل أفصح في واقع حياتنا اليومي، ولنعتبر بحال الأفراح، والأتراح أين سنرى الفرد فيها نسخة كربونية يعيد المجتمع إنتاج نفسه من خلاله بجزيرة قاتلة ينمحق تحتها الرفض الفردي في مستواه التنظيري.

ولأن النموذج الدارج هو الذي يحكم العلاقة ويؤطر من خلالها الفعل الفردي والجمعي على قاعدة السلوك المعياري " اصنع كيما صنع جارك، وإلا غير باب دارك " وفي هذا النموذج الصغير برسمه الكبير بأثره إشارة صريحة لحجم تسلط الأنا الجمعي في فرض نماذجه السلوكية التي إن تحفظ عليها الفرد أو عارضها انحسر في الزاوية الضيقة مجتمعيًا، وصار مثار تهمة وردة كونه شق عصا الإذعان على النموذج الانطباعي السائد داخل الجماعة، ففي المناسبات مثلا نسلك نمطا نموذجيا من الأعراف باطنه كلفة وتصنع ومؤونة وديون...، وظاهره مواكبة المؤضة والتنافس في الظهور بمظهر الأحسن والأفضل، وكلها تعكس في اللاشعور الجمعي نوعا من الوفاء لنموذج مجتمعي في موقف بعينه يفرض سلطته وحضوره ولا يلتفت لنكير هذا، أو فقر ذاك، ولكنها حكمة الفقراء الجارية في تقليد نموذج الأغنياء .

إن هذه النماذج المقبولة مجتمعيًا من شأنها أن تبني ذهنيات تفرض أشكالًا من الطقوسية قد يتغير الشكل القشري منها مع الوقت إلا أنها تزداد استحكامًا كلما جددت من أشكالها، ويتوارثها الناس كما يتوارثون عاداتهم وتقاليدهم وجملة متعلقات حياتهم على أنها أفكار جديدة، ولتأخذ مثلا الأفراح في أيامنا وكيف غدا الناس منخرطين في دورات لا حصر لها من التشديد والتضييق الرجل والمرأة في الأمر سواء، ولو رحنا نعدد أمثلة العنت والمشقة الملازمة للإعراس مثلا لولينا فرارا ولملئنا رعبا من صرامة النموذج المعياري الذي أملاه العرف الجمعي ليحكم مثل هذه العلاقة، فيكون المرء بعد زواجه أشبه بمن قدر له أن يخرج من عنق الزجاجية***، وليس حال الأتراح بأحسن حال من الأفراح في مجتمعاتنا لما يصحبها من طقوس وأعراف لا أول لها ولا آخر والظاهر أن الفرق بين النموذجين في الحالة الاجتماعية هو كالفرق بين حرف (الفاء . والتاء) في اللفظين.

وعموما تبقى النماذج حيال المواقف التي تترجم عنها متباينة مما يعني نسبيتها، ونسبية توقعنا منها، وأن لكل نموذج أتباعا ومريدين ، ونحن لا نعرف على أي نحو من الأنحاء يقدر لهذا النموذج أن يعيش ويتسع مداه في واقع الناس ويغيب نموذج آخر ولا يعود يذكر إلا للشاهد التاريخي أو الوعظي والترشيدي ؟

ولله — كما يقول طه حسين — : " حكمة أجرى عليها أمور الناس " ، وهذه الحكمة الغائية هي التي تجعلنا نختزل نظرتنا في الحكم على الأشياء واعتبار نسبيتها الأمر الذي يوسع أفقنا ويجعلنا ننفتح على نماذج الآخر المختلف عنا بالكلية بصرف النظر عن طبيعة نماذجه التي يخلص لها ما وسعه الإخلاص، ويستमित في الدفاع عنها بجرارة من منطلق القناعة والالتزام العام .

إذن إن نظرتنا لنماذج الآخرين، ونظرتهم لنا من نماذجنا نسبية بحيث لا توجد في هذه المعادلة حديات فاصلة على طريقة استعمال الرجل والمسطرة للقياس، وتحديد الأبعاد مادامت نماذجنا نشأت معنا، وكبرت فينا مع الزمن والتنشئة، وأنها ميراث جمعي مشترك، وبالتالي فالجهود الشخصي القائم على الاختيار الحر المعزز بالدرس والبحث قليل في صياغة هذه النوعية من النموذج وهي الحالة الغالبة على الناس، فهم مسيرون اجتماعيا في ذلك، وهذا يفسره وجودنا أمام نماذج مناطقية وجغرافية وطائفية وعرقية ترفض الآخر خيفة منه.

إن تغيير النماذج المصنوعة في أذهان الأفراد والجماعات عملية في غاية الدقة والتعقيد كونها تلتبس بالشخصية الأنا، وتفاعل طريقة تفكيرها وسلوكها ومعالجة التغيير عند الفرد والحال هاته أشبه بمن يقال له غير نفسك لتعود غيرك، وتزيد روح التقليد الموروث في تنميط نوعية النموذج

الجمعي وتجزيره ، ولهذا يجد الأنبياء والمصلحون ما يجدون من أقوامهم من إعراض ومنافرة في سبيل إصلاح قناعاتهم وتغيير نمط النماذج المستحكمة بمقتضى الطبع العقيم في الأنفس والعقول.

موافقنا بين نموذجين:

إن استحضار صورة نموذج ما تستدعي جملة من متعلقاته، ويتحدد من خلال هذه المتعلقات طبيعة الثقافة التي تحدد زاوية النظر، ونمط الموقف وإذا كان الناس على الرأي القائل : كل مليحة بمذاق، فإننا واعتمادا على مفهوم المخالفة نحرر بالموازاة: أن كل مستهجن بمذاق، وأن الأشياء تنماز بأضدادها.

ولعل اعتماد المثال التالي أفضل ما يقرب هذا المفهوم من مجال إدراكنا ذلك أننا لو أجرينا مسابقة بين رسامين لرسم صورتين نموذجيتين للقبح والجمال: فلا شك أن الأولى سيختزل فيها كل معنى للقبح والسوء بشكل مركز وكثيف.

والثانية: تقارب صورة الجمال في نموذج المرغوب والأكمل إلى غير نهاية، وكل ذلك في حدود التصورات البشرية المحدودة بحدود الثقافة والخبرة.

وعندما نشمن الجهادين سنبادر بوضع جائزة تكريمية للعميل، ومن دون شك سيكون الفائز بجائزة المثال الأول هو من أغرق في تشخيص مفردات الشناعة والبشاعة وفق ما تقتضيه الصورة النموذجية للشيطان، وتكون صورة الثاني على النقيض من ذلك تماما كون الرسام هنا في سياق الحديث عن الجمال والكمال ونسبة كل قيمة خيرة إلى النموذج الملاكى تماشينا مع مواصفاته.

إن هذه التصنيف الحدي التقابلي بين نموذجين متغايرين يجسد كل منهما حالة إثبات للآخر نراها حاضرة في مفاصل حياتنا الخاصة والعامة، ثم إن تلك الحياة العامة أكثر حضورا بنماذجها في وعي الأفراد، وهم أيضا أشد انقيادا وانصياعا بلا وعيهم الباطن ولا شعورهم الفردي ذلك أن تأثير المجتمع — كما ألحنا من قبل — وضغطه سيف مسلط على رقاب الأفراد لا يرجون من سلطته فكاكا إلا نادرا حيث يمارس قولبة ذوات أفراد وفق نماذج المعرفة، وأطره الفكرية منذ النشأة الأولى وينوب عنه في هذه المهمة ابتداء الوالدان أو الأسرة الصغيرة وهي بالنهاية تعد عينة مصغرة أنتجها المجتمع ليمارس من خلالها فرض تلك الهيمنة القهرية على الناشئ الجديد، ولا فرق بين مجتمع متحضر أو ثالث فلكل منهما طريقته في الهداية لنماذج، إنهما يقومان بنفس الفعل مع اختلاف في جدول الأعمال، وترتيب الأولويات

إن النماذج الحية المتحركة التي تعيش بيننا في الجامعة في المكتبة في السوق وفي المنطقة والقطر هي منتج مجتمعي حتى إنه بالإمكان القيام بنوع من الفرز النموذجي بين منطقة وأخرى وإقليم وآخر للخلوص إلى نموذج يمثل شخصية قومية مشدودة لبعضها البعض بجملة من السلوكات والعادات التي تغدو بالنهاية مصفوفة من القواسم المشتركة يتميزون بها عن غيرهم حتى داخل الإقليم.

تسويق النموذج وطبيعته:

لننظر — على سبيل التمثيل — في جانب من جوانب الاجتماع السياسي، وفيه نفترض وجود مرشحين في حملة انتخابية لعهد مؤسسية من مؤسسات الحكم في بلد ما من البلدان فما ذا سنلاحظ ؟

سيحرص كل نموذج على الظهور بمظهر الأفضل والتميز وسيعمد على إخراج مؤهلاته العلمية إن وجدت، ثم يبشر بنظافة ماضيه، ويشيد بطهارة يده، ولا يفوت شاردة ولا واردة مما قد يراه يزيد من رصيده عند جمهوره كنموذج مناسب وصالح، إلا سلط الضوء عليه ويحيط نفسه بحالة من الوعود لا حد لها، وهو في كل هذا يغرض للإفادة من صورة النموذج المتفرد عن باقي النماذج المعروضة للتسويق السياسي، وما يصحبه من إشهار إعلامي يتمركز حول الذات النموذج.

ولذلك عندما نقف مثلاً أمام صورة لنموذج من تلك النماذج سنجد أنه يضع مصنفة تحوي جملة من الشروط التي يفترض أن يكون عليها النموذج المتوهم في قناعة الناس وفكرهم، فنسجد مثلاً مكتوباً بالبند العريض بين يدي الصورة : التزاهة، الكفاءة، الالتزام، الأخلاق، الابن البار، المستقبل.. وإلى ما هنالك من هذه العمولات النافقة في سوق السياسة وما دخل في حكمهم، وهذه الشروط كلها تتوخى التقييد لنموذج معياري صعب التحقق في واقع الناس بطبيعته البشرية.

إن النماذج التي كثيراً ما نتماهى معها ونتصور أنها تترجم عن قناعاتنا وثوابتنا هي — كما أشرنا من قبل — تتوافر على سقف كبير من الجهوزية والقدرية كوننا اخترناها إملاء فوقياً ربما لخصها مضمون مقالة الشاعر :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا.
ويتبدى هذا بشكل أوضح فيما لو فكرنا بعزم في لحظة من اللحظات في التمرد والرفض مثلاً لنموذج من نماذجنا الثقافية المصطلح عليها في الضمير الجمعي، ورميناها بالبؤس محددين ما لها وما عليها، ولو من منطق

التاريخ والواقع والسياسة لوجدنا من نفس نموذجنا الثقافي من ينكر علينا ويشنع بعلم أو بجهل .

والظاهر أن الميل لتحنيط النموذج طبع مركزز بأصل الفطر البشرية غالبا يتكرر بالمعنى القرآني ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾⁽¹⁾ .

وهذا انتقاد قرآني حاد للجمود الذي يعمل سدنته على إيقاف عقارب الساعة عن حركتها الطبيعية، وتثبيت لحظة ماضوية اكتفاء بها على طريقة ليس بالإمكان أبدع مما كان، ومثل هذا الطرح أخطر ما في الموضوع إن تحوّل إلى قناعة تحجب صاحبها عن أن يحتسب في اعتباره الجوانب النسبية في الموضوع، فهو لم يستشر في اختيار توقيت ميلاده ولا ببقته الجغرافية، ولا مستواه الاجتماعي، ولا عائلته، ولا ما رضعه ثقافة وفكرا من وسطه الجمعي من عهد التمام إلى عهد العمام، وهي كلها حلقات مترابطة مفضية لتخليق نموذج محدد بنكهة معينة.

وإنه لو قدر لأحدنا أن يزداد في مجتمع بوذي أو هندوسي، أو مسيحي، أو يهودي لكان على دين قومه ولتشبع بمبادئ وأفكار تلك النحل والطوائف، وبالتالي فلا معنى لإدعاء ملكية الحقيقة المطلقة فيما يتصل بطبيعة بشرية، وأن القناعة التي يعتد بها لتصمد في سجل الأفكار وحوار الثقافات ما كانت بعد البحث والدرس والتمحيص وتبقى رغم ذلك برأسين اثنين: الأول ذاتي يتلازم مع الخصوصية حيث يكون النموذج المعبر عنه غالبا الفرد ذاته، وموضوع حديثه، وما دخل في دائرة اهتمامه.

والثاني موضوعي: حين يتحدث المرء عن النموذج الخارج عن ذاته باعتباره معطى ناجزا يترافد فيه مع وسطه الجمعي بنفس حيادي.

ولعل هذا مضمون الحديث النبوي : يولد المولود على الفطرة،
وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " ففطرته هنا ليست سوى قوالب
تأهيلية جبلية الأصل تتبرمج وفق ما هو مطروح عليها نموذجاً: اليهودية،
النصرانية، المجوسية.. مما يجعلها نماذج كسبية، فالعقل هو الفطرة أما وسائل
عمله، ونمط تفكيره، ونظراته للأشياء هي مكتسبة من المجتمع، وبسبيل هذا
المعنى قول الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه.

ما دان الفتي بحجى ولكن يعود التدين أقربوه

فأول ما يفتح عليه الطفل في الوجود بيته وأنموذج والديه ثم أسرته
فترسم في ذهنه أول معالم الحياة وصورها مما يدرك من أحوالها، وطرائق
عيشها، فتغدو نفسه منفعة بكل تأثيرات بيئته تلك وأشكالها، وهنا يعبأ
النموذج كما تعب القوارير بالسائل ويشحن كما تشحن البطاريات، وما أن
يخف تأثير الأسرة مع الزمن والنضج العقلي حتى ينخرط الناشئ في محيط
مجتمعه الكبير المتلاطم بأمواج لا حصر لها من التناقضات الحادة سواء في
التعامل وقواعد السلوك، أو في تركيبة المجتمع الطبقي : أغنياء فقراء، أميون
متعلمون. أشراف ومنبوذون.. وكلها نماذج تطبع وعيه، وتغدو معرضاً
كبيراً للقبح والجمال، والقذوة والنفرة.

وإن إخفاق الأفراد في تمثل نماذج مجتمعهم والتماهي مع مثلهم دليل
إخفاق منظومة المجتمع الثقافية ككل، فالمجتمع الكبير يصنع النماذج الكبيرة،
والصغير يصنع حطاماً من نماذج الألف فيه كأف تملأ الأرض من كثرتها ولا
تغني في أمر جلل، ولهذا معنى يشابه ما كان مالك بن نبي يشير إليه في
مقارباته لإشكالات الحضارة من أن الفرد مشروع مجتمعه ابتداءً، ويضرب

المثل التالي : " هب أن إنسانا.. يأتي للوجود كائنا بشريا.. فإن هذا الكائن

سيوضع في احتمالين

احتمال أن يأتي إلى الدنيا على محور واشنطن، موسكو.

الآن يمتد إلى طوكيو.

احتمال أن يأتي إلى الدنيا على محور طنجة جاكرتا.

فعلى المحور الأول يدخل هذا المولود تحت قانون الإحصاء فهو

مثلا في أمريكا متعلم بنسبة 95%، في فرنسا أكثر قليلا، في ألمانيا

أكثر، 190% الاتحاد السوفياتي إلى حد ما، في اليابان 100%، نسبة العمل .

لكن لتتوقف عند الضمانات الاجتماعية:

التعليم 2. العمل مثلا 85% .

أما في المحور الثاني طنجة جاكرتا فإن هذا الطفل سوف يدخل

في قانون إحصائية أخرى، إذ هنالك نسبة 50%، بطالة، 60% في

المتوسط جهلة أميون و40%، متعلمون.

فمنذ ولادة الطفل في الهند مثلا تعطيه 25%، من الحظوظ

ليكون هنديا منبوذا

نماذجنا: حضور التاريخ وغياب الحضور.

نتصور أننا نعيش في الشرق أزمة هوية تتآكل فيها نماذجنا بشكل

مرضي متسارع حيث بدأت مجتمعاتنا تفتقر بالواقع إلى النموذج القدوة،

فهي لم تعد تمجد التهذيب، ولا تهتم بإصلاح حالها، بل تزهد في وعي ذاتها

ومعرفة ما يدور حولها، وتعيش انفصاما نكدا، وإرباكا فظيحا تعكسه صورة

النماذج النظرية في بطون الكتب وعجزها عن مجاراتها فلم تعد على مستوى

التأثير تنحطى سقف الطوباوية لافتقادها للرصيد العملي والممارسة اليومية

في حياة الناس إذ أن مسلكيتنا في دائرة السلوك والفكر بائسة إلى حد كبير حتى لربما ينطبق علينا قول الشاعر:

ليست البلية في أيامنا عجب بل السلامة فيها أعجب العجب

وأزمة الهوية تلك أفقدتنا النموذج الحضاري المتصالح عليه في كل مفصل من مفاصل حياتنا، وإلى اليوم لم نؤسس لمثال نهضوي نقاخر به بين الأمم، ونذكر به بخير عند أجيالنا القادمة، ولم نزد عن تبييض أنفسنا بالكلام بأحسن التنظيرات التي هي في ذمة التاريخ، ثم ننكص على أعقابنا فنسودها بأسوأ التطبيقات، ووجدنا أنفسنا في قبالة ما يمكن تسميته النموذج الهجين الذي يجعلنا نستورد من الغرب مبادئه، ونضفي عليها من ضعفنا، ونجعل أنفسنا موضع ريبة وإدانة دون خجل عندما نتماذج بنماذجنا التاريخية التي لم نعرف كيف نستفيد منها، أو نتواصل معها على مستوى الفكرة والالتزام الفردي والجماعي المنهج في أجندة ثقافية.

إن عالمنا اليوم يعيش عصر السماوات المفتوحة، والفضائيات

والإنترنت

وينفتح على نفسه للحد الذي جعلنا نعيش داخل قرية كونية، تنتقص فيها الهويات، وتراجع السیادات لحساب أصحاب الهيمنة والنفوذ، وصار الانفتاح يطبع الموقف، والانعزال قهمة يتعقد الناس منها وينفرون أن يوصموا بها، ولم تعد تلك الحدود — في نظرنا — على المستوى الثقافي قائمة، وصار الناس أقرب ما يكونون إلى بعضهم، وتضاءلت حدود الخصوصية لدرجة أن أمسى الشرقي في موجة الانفتاح العاتية يتماهى بالنموذج الغربي قلبا وقالبا، وفي الضفة الأخرى نرى في الغرب من يتماهى مع النموذج الشرقي ويجهد نفسه في تمثله وإن كلفه ضريبة المنفى الثقافي.

الفارق البسيط بالنسبة للنموذج الشرقي هو أنه لم تتح له نفس الحظوظ التي للنموذج الغربي كونه يعيش غربته حتى في مغارسه الأولى، ورغم ذلك يمارس نوعاً من الممانعة في القدر المتاح له في مقابل نموذج غربي مؤسسي واضح المعالم تصنعه مخابر الدرس والبحث، والحركات والأحزاب وتعمل على تفعيله بينما يشكو وضعنا قصوراً يجعل أرضنا بوراً متروكة للعشوائيات ولطف الأقدار.

إننا حين أعلننا عن استقلالات جماعية من قيادة حاضرنّا أقلنا معنا نماذجنا، ولم نجد سلواناً وعزائناً إلا في الاختباء وراء التاريخ والفرار إليه مذعورين لأن الحاضر يضيق بنا ونضيق به ويكتم على أنفاسنا، فإذا جلس الواحد منا للحديث تراه مباهاياً ولسان حاله يقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم.
وما إن يجتمع الكثير منا بالأغيار من أبناء النماذج الأخرى، ويتفاتحون أطراف الحديث عن المنجزات الإنسانية الحاضرة حتى نرفع ورقة التاريخ في وجوههم، ونحدثهم عن الكرم ثم نستدعي صورة غمطية لكرم حاتم وكيف أن حاتم هذا ذبح فرسه لضيفه لم يجد غير فرسه، وقد فات المقاييس فارق ما بين الحاليين حين تجاوز في مقاربتة عامل الزمن والتاريخ بسياقاته الموضوعية التي تحكم الظرف والتجارب، ويقع بقصد أو غير قصد في خطأ المقارنات، فحاتم لو قدر له العيش في سياقنا الزمني الآني فلن يزيد على دعوة ضيفه إلى مطعم بنجمتين أو حتى ثلاث.. ثم يمضي كل منهما لحال سبيله.

وما ذا لو نزل اليوم ضيف بالمتغني بكرم حاتم؟

ألا يكفيه في أحسن أحواله — وهذا مع افتراض تمثله روح حاتم وكرم حاتم — أن يشتري لضيفه ما يتفق وكرم الضيافة العربي ثم يدعوه إلى

بيته دون أن يكلف نفسه منطق المبالغة لتمثل هذه النماذج التاريخية ؟
وحصر الكرم في نموذج حاتم .

لربما كانت هذه النمذجة مرتبطة بعامل نفسي يجعل الإنسان يترع
إلى مراكمة الفعل القيمي في نموذج إنساني بعينه يتوخى فيه الاتصاف
الكمالي بحيث لو لم يكن هذا النموذج حاتما لكان غيره.

ولقد جرى القدامى في أدبياتهم على مثل تلك النمذجة لأشخاص
بعينهم وجعل جملة من الصفات كالألقاب لهم، وهم أعلامها دون سواهم
فللكرم نموذج، وللشجاعة نموذج، وللبلخل نموذج وهكذا.. الأمر الذي
أسلم صفات: الكرم والشجاعة والبلخل والخلف**** لنوع من الاحتكار،
والحظر إلى درجة أن الفرد منا لو تنازل اليوم عن سيارة " مرسيدس " تكريما
منه فإن إطلاق صفة الكرم تلك لن تغادر حدود معارفه وأقرب الناس إليه،
وفي أحسن الأحوال بلدته، وربما شكك البعض في نيته، أو في الواقعة ذاتها،
في حين يحظى نموذج حاتم بالقبول رغم مرور السنين والأدهار على صنيعة
ذاك، ولن ينافس منا أحد حاتما في هذا الذكر الطيب الذي اختص به ولو
ذبح نفسه فداء لضيفه فضلا عن فرسه.

إن نسبة الكمال كله إلى الماضي وتناقص فضائله مع ما يستقبل من
الزمن هي قراءة معوقة لأنها تحول بيننا وبين معالجة واقعنا والنظر إليه بنفس
علمي، والتفكير في إخفاقاته ونجاحاته بإيجابية وفاعلية حتى نتواضع قليلا ولا
نبقى طوال الوقت بحال الفقير الذي بقي على الدوام يفتخر بثروة أبيه
المقبور، ويمجد ذكره والدنيا تغيرت من حوله، والأقدار لم تظلم أحدا.

إننا لم نعد نتصدر عالم اليوم — كما أسلفنا — ولسنا قدوته، ولا
قدوة أنفسنا لأن المنهزم لا يصلح أن يكون قدوة لأن الهزيمة عورة يجب أن
يتوارى صاحبها خجلا من نفسه قبل غيره، فالهزيمة الحضارية نتاج تقلص

عقولنا وعزائنا وتراجع فهمنا للحياة إلى مواقع خلفية، ولا أحد يملك
وصفة سحرية لمشاكلنا المستعصية إلا أن نواجهها بعزيمة لا تعرف الخور،
وبعقل ذكي يجعل آخر الفكر أول العمل.

وما لم نحسن تشخيص أدوائنا ستظل أوضاعنا العامة مترهلة تصابحنا
وتماسينا، وسنبقى إلى ما لا نهاية نقرأ أنفسنا من خلال أنفسنا التاريخية
بقراءة تبجيلية تصر بعناد على أنها الأفضل، وأنها الأحسن " وأجماد يا عرب
أجماد " جهلا منا باللحظة الزمنية التي تجمدنا عندها في التاريخ، وسيجعلنا
هذا الكبر المرضي لا نستفيد من المنجزات الإنسانية الحيادية القيم.

إن أولى الناس بالصدارة هي النماذج الحية الفاعلة التي تملك من
وسائل العلم والحضارة ما يتيح لها تلك الصدارة والتقدمة عن جدارة
واستحقاق اتفاقا مع سنة الله في الإنشاء من الأرض والاستعمار فيها،
وحينها يغدو مقياس الحقيقة في الحكم على الأشياء هو النجاح أو الفشل.

نحن نشعر أننا شرق لا ينتمي لهذا العصر بحكم أن أجندتنا الثقافية
لا تنتمي لهذا العصر: عصر الحداثة والتحديث، ولهذا سيبقى نموذجنا
الحضاري مغيب عن واقعنا، ولن يكون بمقدورنا أن نصنع لأنفسنا شيئا
خالدا باسمه يجعلنا جديرين أن يلتفت إلينا، ونعامل باحترام أما قصة الأمس:
أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المحاميع.

هي قصة يقابلها اليوم: وشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم

ذكروا الجدود

لا يمكن استرداد حاضرتنا المسلوبة لمجرد أن ماضينا مجيد، ولن يشفع
لنا أن نبقي نعيش في جلايب الأباء دون أن نبني مثلما كانوا يبنون أو نصنع
مثلما صنعوا، أو نكتفي بمدح نماذجنا التاريخية إلى حد إضفاء القداسة عليهم
دون أن نتمثلهم فكرا وسلوكا وواقعا حيا يعيش بين الناس ويتحرك

برسالتهم من خلالهم، ولقد كنت أتابع أحد شيوخ الفضائيات، وكان يتحدث عن زهد عمر رضي الله عنه، وورع عمر وكان الرجل بدينا تبدو عليه آثار من ولغ في النعماء وغرف من الحلواء لحد التخمّة، وتذكرت كيف أن عمر ذات: يوم اشتتت زوجة الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى فأشريها.

فقلت كيف يستقيم أن يتحدث هذا النموذج عن نموذج عمر الذي حرّم على نفسه أن يخصب إلا بعد أن يخصب عامة المسلمين عام الرمادة. بينما الانطباع الأولي الظاهر من صورة الرجل أنه لا علاقة له بنمط النموذج المتحدث عنه إلا أن يكون ترجية فراغ ومتعة حديث أو نوع من الترف الفكري.

إن علاقتنا بنماذجنا لا يحكمها العدل والإحسان لما يكتنف هذه العلاقة من تسطيح من جميع الأنحاء لأننا لم نحسن التعامل والتماهي مع ما تطرحه ونتحدث به عنها في مجالسنا الخاصة والغاصة، والعلاقة — في تصوري — لا يؤسس لها في الهواء لتبقى تلك النماذج مجرد نظريات حاملة، وإنما لا بد من توفير البيئة المجتمعية الحاضنة على أكثر من صعيد: إعلامي، وثقافي، وسياسي ..

نحن تاريخيون غارقون في التاريخ حال الحديث عن النموذج!، وترداد مأساتنا عندما يفاخرنا غيرنا بنماذجة الحية الحاضرة التي تبدع وتخترع وتبني، في مقابل نماذجنا التي ماتت منذ قرون وشبعت موتاً، فنعمد إلى حال من التظاهر المخل بها أمام الآخرين ونكون بمكذا خطوة نمارس التخفي وراء آباتنا الأقدمين، ونتصور أن الآخرين لا يروننا وإنما يرون من نختفي خلفهم .

إنما ينقصنا هو الاستمرارية ومراكمة الجهد المتصل الذي يصل حلقات الأجداد بالأحفاد، حتى إن أي مصلح اجتماعي أو سياسي أو ثقافي لا يزال يتحرك بذهنية البدو الرحل، فهو لا يبدأ في عمله الإصلاحية من حيث انتهى من سبقه استكمالاً للجهد، وإنما يعتمد أول ما يعتمد إلى إقصاء جهد السابقين ليضع لنفسه نقطة بداية خاصة به، ويستصغر جهد سلفه ليظهر في أعين الناس أنه هو وحده الناس، وذلك لغلبة الروح الفردانية والأثرة والنظرة التآمرية للعمل الجماعي.

لقد بدأنا في بدايات القرن الماضي خطوات واعدة في طريق الإصلاح بجهد الحركات الإصلاحية غير أن النماذج التي سوقت لها حركات الإصلاح في عالمنا العربي لم تمض إلى غاياتها لأنها كانت وليدة أزمة ظرفية فقدت تألقها وحضورها في واقع الناس بمجرد أن انتفت تلك الظروف التي كانت محاطة بها أو ربما لأنها لم تكن تمتلك رؤية مستقبلية تجعلها تعيش زمناً أطول، وتلبس لكل حالة لبوسها لتحفظ بجمهورها بحسب مخطط عملها حتى صار البعض يعتقد أن الإنسان العربي يفتقد بالأصالة روح النموذج لأن كل واحد نموذج نفسه، وذاته هي مرجعيته، وعندما يكون الكل سيد فلا سيد ومرد هذا النفس إلى روح الأعرابية التي كان يتحدث عنها شيخ الاجتماع ابن خلدون حيث لا يزال نعيش مظاهر النموذج البدوي في السلوك والعاطفة والفكر، وأن ما نعمل على الظهور به من دعاوى التحضر بتقمص مزيف لنماذجه هو مجرد غطاء قشري، وأن وراء تلك القشرة المموهة تختفي تلك الروح الأعرابية الشقية ببؤسها وشظف عيشها وفقرها، ومرضها وتخلفها.

فذلكة البحث نبرق من خلالها ببعض رؤوس الأفكار مجملة للبحث، وحاصرة لبعض ما لا يسعنا التفصيل فيه لطبيعة المقال.

إن النموذج ذو سلطة مرجعية حاضرة في حياتنا بشكل مركز وكثيف كون كل واحد منا يفكر بنموذج معرفي ويتعقل المسائل في هديه إن على المستوى الدارج (حالة التخلف)، وإن على المستوى الناهض (حالة الحضارة)، فكل ثقافة تنتج نماذجها وقوالبها، ومجتمعاتنا حين تعمد إلى تفصيل أثوابها على مقاس ونماذج الأستاذ من باب الاستفادة ليس لها أن تقلده بغير وعي — كما يقول مالك بن نبي — : حتى في عثرات مقصه.

نموذج الأنا الحضاري لم يعد له ذلك الحضور والبريق الذي يتمظهر به في بطون الكتب، وكل عهدنا به اليوم أننا نعيشه ببقايا طلليلة من عواطف ماضوية ومشاعر غامضة لم نتبين بعد كنهها وطبيعتها لبعدنا عن مصادر الإشراق الأولى في ثقافتنا، فعندنا نترجم ألفاظها دون معانيها. الأمر الذي أفضى بنا إلى بلبلة فكرية، وإرباك ثقافي فاضح لأن التجارب الإنسانية لا تستنسخ أو تتبنى، فالكائن الحي ينمو من داخله.

فالأنا الحضاري عاد في ثقافتنا تاريخاً مضمرًا غائبًا عن الشهود والوجود منذ قرون وأصبح ينوب عنه ضمير " الغيبة " ولم نعد نملك منه بين أيدينا غير صور وطقوس ورسوم ثقافية متوارثة لا فاعلية فيها، هي أشبه بشكل ساعة فقدت عقارب الإشارة على الوقت، وإن لم تفقد صوت الحركة.

وإننا لم نعد ذلك النموذج الفاعل المرفوع، فاختلالات البنية التركيبية قادتنا إلى وضع جديد لم نفكر فيه، ولم يصنع على أعيننا، ولا عملته أيدينا. إنه وضع المضاف المجرور، ومفعولا به، والصفة المترجمة مع السيد الموصوف بنماذجه الأكثر استيعابا لواقعها وتأثيرا فيه وفي غيره مما أفضى بنا إلى حالة إهمار شديدة قلصت من سقف رؤيتنا للأنفس والآفاق من حولنا، ولعلها الحالة ذاتها التي تحدث عنها فيلسوف علم الاجتماع ابن

خلدون حال حديثه عن الإنسان المجبول — بحكم الطبيعة — على الغرام والهيام بالمتصرين وتبني ثقافتهم " فالنفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها فتقلده في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده..

عند حديثنا عن الآخر المختلف الذي عاد مؤتلفا فينا نستدعي صورة التراجع الماثلة في واقعنا بشكل حاد حيث عاد مقياس التحضر من عدمه مرهونا بمقدار القرب أو البعد من هذا الآخر الغرب الذي نتظاهر بمخالفته في الشكل فقط كحال نقطة الإعجام فوق حرف (الغرب)، وإهمالها في (العرب) وفي النقطة كل السر، وفيها كل الشر .

توجيه الكلام على هذا النحو ليس حديث جلد الذات بل هو — في تصوري — من وعي الذات إذ لا يجب أن تتغاضى عن الحقيقة ونزيف وعينا بل ننظر في المرآة إلى وجوهنا الكالحة دون مساحيق على أمل أن تجد أجيالنا في قابل الأيام طريقها إلى الخلاص، وتهتدي لمستقبل واعد عبر كل هذا الركام المتخلف الآثم المتوارث بيننا منذ قرون، وسنبقى طوال الوقت نستدر عطف الآخرين حتى يلتفتوا إلى خير وجمال ما نملك في غير طائل إلا أن نكون نحن نماذج صالحة للاقتداء في مناددة ومكافأة لأننا نملك من الحق بمقدار ما نملك من قوة النموذج: في العلم والفكر والثقافة، وليس للنماذج الضعيفة أن تسود في عالم يريد الهزّال فيه أن يسمنوا، ويبقى مع ذلك الأمل معقودا على أجيال المستقبل في أن تستفيد من عثرات وكبوات الآباء دون أن تعيد اجترار نماذج الإخفاق ببلادة، ولا تستوحش الطريق لقلة السالكين، والفجر من رحم الظلماء مسراه .

* يتحدث ابن خلدون مثلاً عن المنوال حين ذكره لكيفية حصول الملكة حيث يعتمد في ذلك إلى الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خيال المبدع المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبيهم، ويرى أن مؤلف الكلام كالبناء أو النسيج، أما الصورة النموذجية الذهنية المنطبقة تغدو بمنزلة القالب الذي يبنى فيه.. فإن خرج المبدع عن القالب في بنائه، أو على المنوال في نسجه كان فاسداً. ينظر. مقدمة التاريخ. ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني. ط. 1981 . ج2/1084 و1102.

** ولعل في ثقافة الرجل الأبيض أن لا يكون نموذج الملاك صبيبا أسود اللون وهذا ما لا يرى في الكنائس على أقل تقدير.

*** وأتصور أن الأعراف تختلف من بلد لآخر، ومن منطقة لأخرى إلا أن الحالة العامة في العالم العربي مثلما نسمع في بعض الحصص الفضائية على قنواتنا العربية تشي بأننا كلنا في الهم شرق.

1- الزخرف. الآية. 23

**** كأن يقال كما في المأثورات الأدبية : أبخل من مادر، وأخلف من عرقوب.. وغير ذلك.

1. مقدمة التاريخ. ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني. بيروت.

2. مجالس دمشق. مالك بن نبي. دار الفكر. دمشق.